

ملف العدد قراءات في أعمال حليلة فرحات*

"بلاد المغرب في القرنين 12 و 13 أميلاديين، زمن الإيمان" لحليلة فرحات

حسن حافظي علوي

نشر الكتاب موضوع هذه القراءة باللغة الفرنسية بعنوان: « Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles : les siècles de la foi¹ » وصدر ضمن منشورات ولادة، ونالت به حليلة فرحات جائزة المغرب للكتاب لسنة 1993. وأقترح لعنوانه الترجمة الآتية: "بلاد المغرب في القرنين 12 و 13 الميلاديين: زمن الإيمان"، وهو عبارة عن مقالات منها ما شاركت به مؤلفته في ندوات، ومنها ما نشرته في مجلات علمية محكمة، ومنها ما كتبته بمعية حميد التريكي. أما مواضيع مقالاته فتتنوع بين ما له صلة مباشرة بتطور الكتابة التاريخية بالاعتماد على بعض الفنون الأدبية وفي مقدماتها أدب المناقب، وما يتصل بثنائية رجال التصوف ورجال السياسة، وما يتصل بالتاريخ الاقتصادي والعمراني وتاريخ الذهنيات في الفترة الواقعة بين القرنين 12/6 و 13/7.

وسأعمل على تقديمه في هذه العجالة من خلال استعراض بعض القضايا التي استوقفتني وأنا أقرأه وأعيد قراءته وقد لا تستوقف غيري لمحدودية كل قراءة أولا واختلافها من شخص لآخر ثانيا وهذه القضايا هي : زمن الإيمان والتاريخ وأدب المناقب والجباية كفيصل في علاقة الحاكم بالمحكوم وثنائية رجال التصوف ورجال السياسة وتقوية حافظة المتعلمين بالبلاد ومعالجة التسمم بالبائزهر.

1 - زمن الإيمان

اختارت حليلة فرحات لكتابها عنوانا فرعيا هو "زمن الإيمان" لأن الخيط الناظم

¹ - Edition Wallada, Casablanca, 1993.

لمقالاته على اختلاف عناوينها هو حضور فكرة الإيمان بقوة في كل شيء: في تدبير السياسة وعلاقة الحاكم بالمحكوم، وفي اتخاذ الدين مطية لتسليم ظهر الإمامة العظمى، وفي علاقة أهل الصلاح بمورديهم والمعتقدين في بركتهم، وفي تدبير الصحة والتغذية والوقاية من الأمراض، وفي تفسير الأسباب الكامنة وراء ما تتعرض له الجماعات من أزمات وجوائح بالعقاب الإلهي.

وإذا كان الإيمان عند الفقهاء هو نقيض الكفر، وهو التصديق المطلق والاعتقاد بالله ورسله ووحيه، أو هو الاعتقاد بالقلب والإقرار باللسان، فإنه استعمل هنا بغير هذا المعنى، بل بمعنى الثقة وإظهار الخضوع وقبول الشريعة والالتزام بعقد البيعة، وأداء ما يحق للإمام أخذه من أموال رعيته وما لا يحق له. كذلك كان على مغاربة العصر الوسيط، وغيرهم من مسلمي ذلك الزمان، أن يروا الإيمان، لأن الحكام حملوهم على فهمه والاعتقاد فيه كما ألمحنا إليه، وإلا فلا مجال للحديث عنه كما يُعرّفه الفقهاء.

شهدت المرحلة التي حددتها المؤلفة لكتابها حكم علي بن يوسف آخر السلاطين المرابطين وحكم أقوى الخلفاء الموحدين: عبد المؤمن ويوسف ويعقوب المنصور ومدة من حكم الناصر. ونعلم أن علي بن يوسف عرف، كغيره من سلاطين المرابطين، بحرارة إيمان زائدة عن اللزوم، يشهد لها انخراطه في أعمال جهادية ضد المخالف في المذهب والمخالف في العقيدة، وأنه كان يبكي للموعظة، ويقوم الليل ويصوم النهار، وامتدحه عبد الواحد المراكشي، الموحدي العقيدة، من حيث يريد هجاء بقوله: "كان إلى أن يعد في الزهاد والمتبطلين أقرب منه إلى أن يعد في الملوك والمتغلبين"². واحتفظ لنا التاريخ برواية تؤكد صحة اعتقاده في بركة أهل الصلاح والولاية، ذلك أنه لما أزعج بعض متصوفة الأندلس، ممن ثبت تورطهم في الخوض في أمور السياسة إلى عاصمة ملكه مراكش، ومات أحدهم وهو أبو الحكم عبد السلام بن برجان، أو قتل بحسب اختلاف الروايات، أمر أن يطرح جثمانه بمزبلة وأن لا يصلي عليه أحد، لكن أبا الحسن علي بن حرزهم، وفي تحد سافر

² - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، الدار البيضاء، 1978، ص252.

للسلطان، أمر خادمه بالمنداة في أسواق العاصمة بما يلي: "يقول لكم ابن حرزهم: احضروا جنازة الشيخ الفاضل الفقيه الزاهد أبي الحكم بن برجان، و من قدر على حضورها ولم يحضرها فعليه لعنة الله" فلما بلغ ذلك إلى السلطان قال: "من عرف فضله ولم يحضر جنازته فعليه لعنة الله"³. ولا مرأى في أن ما قام به ابن حرزهم كان كافياً لإدانته وامتحانه، بل يعج تاريخ الإسلام بأمثلة كثيرة تم فيها التنكيل بأناس قاموا بأفعال تقتل عن فعلته جرأة على أولي الأمر بكثير، والحال أن علي بن يوسف لم يلحقه بأذى لما اتسمت به دولته من هامش متسع للحريات ومن حسن اعتقاد في أهل الولاية والصلاح.

أما الموحدون فكانوا خير من استفاد من زمن الإيمان نظراً لما امتازوا به من شطارة في الدعاية السياسية وما حققوه من نجاح في النفاذ إلى ذاكرة العامة عبر ضروب من الخديعة تم الترتيب لها وتنفيذها بإحكام حتى انطلت على الناس وعدوها من كرامات أصحابها. ويكفي التذكير في هذا الصدد بأن المهدي بن تومرت ألبس رفيقه البشير الونشريسي لبوس الحق ليموه به على الناس ويميز به أنصار الدعوة من معارضيها، وأنه أطمر على بعض خاصته القبور بعد أن أكدوا فوزهم بالجنة لمن سألوه عن مصير من قتل في البحيرة من الموحدين، وأن عبد المؤمن عزز وصية إمامه المهدي له بالخلافة بتكلم الطير وبصبصة الأسد. وأن المنصور جعلت منه العامة أحد أبطالها المحبوبين، ولم تصدق خبر وفاته، وسمته مولاي يعقوب، وهو الزناتي الكومي، كل ذلك لأنه أعاد للإسلام عزه بانتصار الأرك واتسحب من طريق الدنيا في آخر حياته وتزهد.

ومع ذلك كله لم يكتف خلفاء الموحدين بما كان عليه أهل ذلك الزمان من حسن طوية وإيمان فطري فمارسوا عليهم الإكراه العقدي وسفكوا الدماء واستأصلوا الجماعات وغصبوا الحقوق وتعسفوا في جباية الأموال، واسترقوا الملاكين، حتى خرج حكمهم عن مبادئ الحكم وانتعشت ظاهرة الولاية بسبب ذلك، لأن موقع الولي، في زمن الإيمان الذي نحن بصدد الحديث عنه، يقتضي أن يتم حوله الإجماع، حيث لم يعد ثمة مجال للإجماع حول الدولة أو

³ ابن الزيات، التشوف إلى رجال التصوف، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، نصوص ووثائق (1)، مطبعة النجاح الجديدة، 1984، ص170.

من يمثلها كما تؤكد ذلك العديد من أبحاث محمد القبلي⁴.

ولعل ما ذكر هنا عن انتعاش ظاهرة الولاية في العهد الموحد هو الذي جعل المنصور ينحو ذلك المنحى الصوفي الذي ألمحنا إليه أعلاه فتسللت إلى المصادر التاريخية أخبار بكانه لسماع الموعظة، وانتشار صيت الصالحين والمتبتلين في عهده، وعلو مكانتهم عنده تبعا لعلوها عند الناس، وقد ينسحب هذا القول على الروايات الخاصة بعلاقته ببعض شيوخ التصوف واستدعائه لهم للتبرك بهم، لا بغرض إزعاجهم، ومنحه لمن يقبل عطايه منهم الهبات الجزيلة.

قام المنصور بكل ذلك في وقت سادت فيه قيم روحية دعا إليها الصوفية والفقهاء على حد سواء فتلقفتها العامة، وسواء أكان هذا الخليفة قد انخرط في هذه الأجواء تحت تأثير هذه الأفكار الجديدة، وأثر الخروج من طريق أهل الدنيا ودخول طريق أهل الآخرة برغبة وقناعة منه أو تحت تأثير حسابات سياسية، فإن ما وصلنا من أخباره في هذه النقطة بالذات لا ينسجم البتة مع ما عرف به من صرامة وحزم في تدبير شؤون الملك، وتلوث يديه بدم أخيه عمر وعمه سليمان.

ومما يشهد على صحة القول إن القرنين 12/6 و 13/7 هما زمن المقدس والإيمان بامتياز أن كرامات من نبغ فيهما من أهل الولاية بالمغرب اخترقت القرون إلى زماننا، وأن الكثير من رجال المدن من أعلام الصوفية ينتمون للفترة المذكورة: كابن حرزهم (سيدي حرازم) ومولاي بوعزة، ومولاي بوشعيب، وسيدي بلعباس، ومولاي عبد السلام بن مشيش،

⁴ انظر تفاصيل ما اخترلناه من استنتاجات تركيبية لمحمد القبلي حول تاريخ الموحدين في كتاباته الآتية: "ما لم يرد في كتابات ابن خلدون" ضمن كتاب: "مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال للنشر، 1987، و"حول بعض مضمرات "التشوف" و"حول التحركات البشرية بمجال المغرب الأقصى بما بين القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر للميلاد" و"قراءة في زمن أبي محمد صالح" ضمن كتاب: الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علائق وتفاعلات، دار توبقال للنشر، 1997، و"الدولة والولاية بالمغرب الأقصى في منتصف العصر الوسيط" ضمن كتاب: حول تاريخ المجتمع المغربي في العصر الوسيط: مقدمات أولية وقضايا، نشر الفنك، 1998، و"حول بعض مرتكزات الهوية في تاريخ المغرب الأقصى الوسيط"، درس افتتاحي ألقى في 28 أكتوبر 1998 بكلية الآداب المحمدية - جامعة الحسن الثاني، ونشر في شكل ملزمة، بمطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2000 و"حول التبدل والاستمرارية بمغرب العصر الوسيط"، درس افتتاحي ألقى بكلية الآداب جامعة القاضي عياض مراكش في 23 أكتوبر، ونشر في شكل ملزمة بالمطبعة الوراقة الوطنية، مراكش، 2001، انظر أيضا :

"A propos du Makhzen des origines : cheminement fondateur et contour cérémonial", in *The Maghreb Review*, vol.30,1,2005, p.1-23.

ويومدين الغوث وأبي محمد صالح، حتى لا نذكر سوى هؤلاء ممن اختزل الصلاح في مدنها ومناطقهم فيهم، وبواتهم الذاكرة الجماعية مكانة من الولاية والبركة لم تتل منهما عوادي الزمن.

2 - التاريخ وأدب المناقب

صدرت حليلة فرحات لكتابها الذي نحن بصده بمقدمة غاية في التركيب أطرت بها مختلف المواضيع التي ضمها في ثنائيه، وانطلقت من قول المقدسي إن المغرب لم يخرج عالما مذكورا، ولا زاهدا مشهورا إلا القليل⁵ وانتهت بشهادة ابن قنفذ الذي أكد على قول إن بلاد المغرب، والمغرب الأقصى منها على وجه الخصوص، "تنبت الأولياء كما تنبت الأرض الكأ". وبين هذين الشهادتين يتأرجح إصرار المشاركة الأوائل على عدم الاعتراف للمغاربة بأي فضل في الصلاح والولاية، ودفاع المغاربة المستميت عن أن الولاية ببلادهم ظاهرة مقررة ومسألة راسخة لا تقبل النزاع.

لهذا ومن أجله تطور التأليف في أدب المناقب بالمغرب لتأكيد ما للمغاربة من الولاية والصلاح أسوة بغيرهم في المشرق، أو لتأكيد ما لهم من مزيد قوة اختصاص ومزية على غيرهم في هذا الباب على الأصح، مع العلم بأن المغاربة تأخروا في تصنيف أخبار أهل التصوف مقارنة مع المشاركة، وتأثروا في تأليفهم بطريقة أبي نعيم المتوفى سنة 1039/430 في كتابه "حلية الأولياء". وإذا كان لعامل المفاضلة بين المغرب والمشرق في مجال الصلاح دوره الفعال في تطور الكتابة المناقبية بالمغرب فإن ثمة عوامل أخرى ساهمت في انتعاش هذا الفن الأدبي والإقبال على التأليف فيه أهمها ما ظهر من عوار الفقهاء على إثر إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" في العهد المرابطي، و إنكار المنكرين للولاية والكرامة كلما جرى الحديث عنها في دولة الإسلام عامة والمغرب خاصة في كل زمان ومكان، إذ كلما ذكرت الكرامات في الأوساط الفكرية، قال المنكرون بأن زمن رجال الفضل والصلاح قد ولى، واعترفوا بكرامات السابقين وأنكروا كرامات العصريين، فيرد عليهم

⁵ المقدسي، أحسن التثاسيم في معرفة الأقاليم، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 3، 1991، ص 216.

المؤيدون بقول: "الكل بلد قادة ولكل زمن سادة"، ثمة جدل دائم حول هذه القضية، وأخذ ورد بين المنكرين "أهل الشك" والمؤيدين "أهل اليقين".

قسمت حليلة فرحات مصادر هذا الفن الأدبي بالمغرب إلى مجموعتين: مجموعة أولى تشمل "السر المصون فيما كرم به المحسنون" لطاهر الصديقي، ورسالتي محيي الدين بن العربي "روح القدس" وأولياء الأندلس" و"التشوف" للتادلي، وهو أهم كتب هذه المجموعة على الإطلاق، و"دعامة اليقين" للعزفي و"المستفاد" للتميمي. وقد تم تأليف بعض كتب هذه المجموعة في النصف الثاني من القرن 12/6، أي في أوج دولة الموحدين، في حين ألف بعضها في أجواء ما مني به المغاربة من إحباط على إثر هزيمة العقاب.

ولعل أهم ما يميز الكتب المذكورة أن المقدس فيها لا يختص بعائلة أو بمنطقة أو بعرق أو بجنس، ليس فيها تمييز بين العامة والخاصة كما هي عادة الفقهاء، وتظهر الولاية فيها في العالم والامي والحر والعبد والرجل والمرأة على حد سواء، وفيها من الإسلام العالم والإسلام الفطري الشيء الكثير، بل فيها علماء أعلام لا يرد ذكرهم إلا في سياق تربيتهم على يد شيخ عارف، أو ما نسب إليهم من الكرامات والخوارق، فلا تنفعهم في هذا المجال تربيتهم بلا شيخ وإن أجادوا.

أما المجموعة الثانية فتتكون من "تحفة المغرب في بلاد المغرب" لأبي مروان اليوهنسي و"المنهاج الواضح في كرامات أبي محمد صالح" لأبي العباس أحمد حفيد أبي محمد صالح و"المقصد الشريف في أولياء الريف" للبادسي و"إئمة العينين في نزهة الناظرين في مناقب الأخويين" لابن تكلات و"الوسيلة إلى المرغوب في كرامات المولى أبي يعقوب" للأوربي و"السلسل العذب والمنهل الأملئ" للحضرمي بالإضافة إلى "أنس الفقير وعز الحقيير" لابن قنفذ، و"المسند الصحيح الحسن في محاسن ومآثر السلطان أبي الحسن" لابن مرزوق. وهذه الكتب لا تختلف عن سابقتها في طريقة التأليف، لكن مزيته أنها تختص بذكر كرامات ولي بعينه أو عائلة أو جهة أو منطقة معينة. وتم تأليف أغلبها في الفترة التي ازدهرت فيها حركة التمددين بالمغرب، أي في الفترة التي اختارتها المؤلفة

كابطار زمني لمؤلفها.

لم يُقبل الباحثون في تاريخ المغرب على أدب المناقب بالشكل المطلوب حتى الآن لما فيه من الكرامات والخوارق القريبة من الأساطير منها إلى الرواية التاريخية، ولما يفرضه التعامل مع هذا النوع من أنواع الأدب من صعوبات قد نجد لها تفسيراً في بعض معاني المنقبة في المعاجم اللغوية، إذ من معانيها الطريق في الجبل، والطريق الضيق، ومن ثم فإن المشتغل بتحليل الخطاب المناقبي كالسائر في طريق جبلي أو في طريق ضيق لا يفلح في عبوره إلا إذا أعد للأمر عدته.

ويحسن بنا هنا التذكير بأن حليلة فرحات انطلقت في هذا العمل، كما في أعمالها التي صدرت لها منذ بداية تسعينيات القرن الماضي إلى اليوم، من هم معرفي خيطه الناظم البحث في الأسباب التي كانت وراء الازدهار الذي عرفته ظاهرة الصلاح بالمغرب وما رافقها من إنتاج وافر في مجال التأليف في أدب المناقب، منطلقاً من المتن المناقبي لمعالجة ما يتصل بهما العلمي من تداعيات على تطور المجتمع وتاريخ الذهنيات فلا يخلو مبحثاً من مباحث أعمالها من الإحالة على هذا النوع من المصادر.

3 - الفصيل بين الطاعة والعصيان في علاقة الحاكم بالمحكوم

يتعلق الأمر في هذه القضية بمسألة الجباية التي زينت المؤلفة كتابها هذا بمقالة حافلة عنها معتمدة فيها أيضاً على أدب المناقب لأن أهل الصلاح اهتموا بالجباية من زاوية ما لحق عباد الله المؤمنين الأمنين من تعسف وجور العمال. وتتبع مختلف التسميات التي استعملت للتعبير عن أنواع المجابي كالرسم واللوازم والوظيف والضريبة والمغرم والمعونة والمكس والقبالات والجزاء والتقسيط وغيرها، وخلصت إلى أن لها دلالات خاصة ذات ارتباط وثيق بالظلم والاضطهاد. وسنحاول تتبع معاني هذه التسميات في مختلف المعاجم اللغوية لتأكيد هذا الاستنتاج، دون التعرّيج على ما ورد بشأنها في المصادر التاريخية على اختلافها، لأن المؤلفة تكفلت بذلك فنقول:

إن الرسم هو ما يؤخذ على البضائع من الأعشار، ويعرف أيضاً بالجمرك، كما يطلق

على غير ذلك من المرتبات السلطانية كحكر البيوت وغيره. ويهمننا هنا التأكيد على قول إن من معاني الرسم الهدم والخراب، وإذا قيل رسم الغيث الديار فهم منه أنه هدمها وأبقى أثرها لاصقا بالأرض، وفي هذا إشارة إلى ما يلحق الرعايا من ضرر بسبب أداء الرسوم.

أما اللوازم، فمن لزمه الشيء بمعنى أوجبه عليه فصار واجبا عليه لا يفارقه، والتزم فلان القرية وغيرها، أي ضمنها بمال معين للحاكم بدل ريعها. واللزام مصدر لازم هو الحساب، فيه إشارة لما يفرض على الناس من غير رضاهم به.

أما الوظيف، فمن وظف، يقال وظف البعير يظفه وظفاً، أي قصر قيده، ووظف القوم تبعهم، فيه إشارة إلى التضييق عليهم في رزقهم، ومطالبتهم ببعض منه.

والغرْمُ من غرم بمعنى أدى، وهو لزوم نائبة في مال من غير جنائية، وحتى الغرام الذي هو الولوع والحب من معاينة الحب المعذب للقلب والشر الدائم والهلاك.

أما المكس فهو ما يأخذه أعوان السلطان ظلماً عند البيع، وهي دراهم كانت تأخذ من بائعي السلع في الأسواق بالجاهلية، ومعنى مكس فلان فلانا ظلمه، ومن ثم استعمال الفقهاء للمكوس بمعنى الضرائب غير الشرعية.

والقبالات من قبل، وقبل فلان على الشيء لزمه وضمنه.

والجزاء من جزأ المال وقسمه أجزاء ثم أخذ منه جزءاً.

والتقسيط من قسّط أي عدّل، لكن من معانيه جار وحاد عن الحق، ومن معانيه أيضاً الحصة من الشيء.

أما الجباية فمن جبي يجبي جبياً وجباية. وجبا الخراج يجبوه جبوة وجباوة، جمعه. والجبا محفر البئر، وفي هذا المعنى ما يتلاءم وحرص الجابي على جمع ما يمكن من ملأ المحفر، الذي هو الخزينة. والجبا أيضاً نثيلة البئر، أي ترابها الذي يوضع حولها، يترأى للناظر من بعيد، فيه صورة لأكداس الأموال التي تجتمع من الجباية⁶.

وأجبت الرجل إجباء، غيب إبله عن جابي الصدقة، في محاولة للتخلص من الأداء.

⁶ - مادة جبي بالمقصورة وجبا بالممدودة، محيط المحيط.

وأجبي زرعه باعه قبل بدو صلاحه، أي قبل تخريصه من قبل الخراص. ومن معاني جبا الرجل، وجبىَّ يَجْبَأُ جَبَأً، توارى واختفى، حتى لا يؤدي للجابي ما يلزمه. وجبأ عنه خنس وارتعد، فيه إشارة للخوف من الجابي. وجبأ الرجل الشيء كرهه، فيه إشارة إلى كراهية الناس للجابي والجباية. وجبأت عليه الحية، خرجت إليه من جحرها لتلدغه. ومن معاني الجابي في اللغة الجراد، وإذا قيل "جبا الجراد"، فهم منه أنه أكل كل شيء وأتى على اليباس والأخضر.⁷

وتستعمل كلمة الضريبة للدلالة على بعض ما يقوم بجمعه الجابي من أموال الجباية. ومن معاني الضريبة السيف وحده، والموضع الذي تقع فيه الضربة من جسد المضروب، لكن المعنى المتداول لها في غالب الأحيان هو الرجل المضروب بالسيف، داخلته الهاء وإن كان بمعنى مفعول، لأنه صار في عداد الأسماء كالنطيحة والأكلة⁸.

كأنى بهذه المعاني السالفة الذكر كانت حاضرة في ذهن من اصطالحوا على تسمية أنواع الضرائب بالأسماء المشار إليها أعلاه، لأن من معانيها ما يعكس بأمانة الأسلوب المعتمد في جباية الأموال بكل بلاد الإسلام في العصر الوسيط، وما رافقه من جور المكاسين وعسف المتقبلين واغتناء المشرفين والعمال وكل العاملين تحت إمرة صاحب الأشغال من جهة، وتملص الرعية من الأداء، أو احتماء البعض منها بذوي النفوذ والجاه من جهة أخرى⁹.

4 - ثنائية رجال التصوف ورجال السياسة

وعالجتها المؤلفة من خلال قضيتين: تتعلق أولاهما بتنظيم ركب الحاج من طرف الشيخ أبي محمد صالح وثانيهما بمنتحلي النبوة والمهدوية في تاريخ المغرب الوسيط: أما القضية الأولى فتنبَّعت فيها ما كان لتأسيس شيخ آسفي لطائفة الماجريين، التي عرفت فيما بعد بطائفة الحجاج، من أثر في توتر علاقته وعلاقة من تولى بعده زعامة هذه

⁷ - مادة جبا، محيط المحيط وانظر كذلك، حسن حافظي علوي، الجباية على عهد يوسف بن تاشفين، ضمن أعمال ندوة يوسف بن تاشفين، منشورات مؤسسة البشير، مراكش، 2002، ص 333 - 334.

⁸ - مادة ضرب، محيط المحيط.

⁹ - حسن حافظي علوي: الجباية على عهد يوسف بن تاشفين، ص. 334.

الطائفة مع الخلفاء الموحدين، وما صار لهم من الخطوة لدى المرينيين.

وإذا كان تقرب المرينيين من شيوخ طائفة الحجاج يندرج في سياق رغبتهم في تعزيز علاقتهم بالمشرق الإسلامي فإن احتراز الموحدين من أبي محمد صالح وأتباعه يفرض طرح السؤال الآتي: ما الذي أزعج الموحدين في عمل شيخ يحث الناس على أداء فريضة من فرائض الإسلام ويوفر لهم الظروف المناسبة للسفر ضمن ركب اقتضت الضرورة تنظيمه لضمان الأمن في النفس والمال لكثرة المحاربين على طول الطريق الرابطة بين المغرب الأقصى والديار المقدسة؟

للإجابة عن هذا السؤال يحسن بنا الاعتماد على نتائج كتابات وازنة اهتمت بنفس الموضوع، ويتعلق الأمر بما استخلصه محمد القبلي من قراءته لزمن أبي محمد صالح، ومفاده أن دعوة هذا الشيخ تركزت بأحواز مراكش وبمناطق الأطلس الشرقي وما والاها من بلاد درعة وسجلماسة، أي بالمجال الذي كان يخضع جزء كبير منه لنفوذ قبائل هسكورة التي ساهمت في إضعاف نفوذ الموحدين في فترة غير قصيرة من القرن 13/7. وعليه، فإذا علمنا بأن تنظيم شيخ أسفي لطائفة الحجاج كان موجهاً بالأساس نحو تأمين الطرق بمناطق خرج معظمها عن ربة الحكم الموحي وقتئذ، سهل علينا فهم الأسباب التي حدثت بخلفاء بني عبد المؤمن إلى الاحتراز منه ومن طائفته. ناهيك عن أن تسرب دعوة هذا الشيخ إلى قبيلة قوية كهسكورة يمثل حدثاً على درجة كبيرة من الخطورة، لأنه لأول مرة في تاريخ المغرب يحدث هذا النوع من التلاقي بين طائفة دينية متصوفة وبين تحالف قبلي يرمي إلى التحكم في مصير الدولة ومصير المنطقة التجاري، وهذا ما كان إلا ليزعج الموحدين غاية الإزعاج، وهم الذين خبروا خطورة هذا النوع من التجارب، بعدما أوصلهم انتحال ابن تومرت للولاية إلى سدة الحكم¹⁰.

وأما القضية الثانية فتتعلق بمنتحلي النبوة والمهدوية في تاريخ المغرب الوسيط التي

عالجتها المؤلفة في دراسة متميزة بمعية حميد التريكي ونشرتها بمجلة Hespéris-

¹⁰ انظر: "قراءة في زمن أبي محمد صالح"، ضمن كتاب: الدولة والولاية والمجال في المغرب الوسيط: علانق وتفاعل، دار توبقال للنشر، 1997، ص. 85 - 101.

Tamuda في آخر التسعينيات، ثم أدخلت عليها بعض التعديلات الطفيفة عند إعادة نشرها ضمن هذا الكتاب. وتكتسي هذه الدراسة أهمية بالغة لأنها اهتمت بأخبار المتنبيين والمهديين المهووسين بحب الملك من الذين لا يخلو زمن من أمثالهم في تاريخ دولة الإسلام من العصر الأموي إلى الآن، لأن انتحال مثل هذه الدعاوى هو أقصر السبل لتولي الإمامة العظمى.

راهنية موضوع هذه الدراسة هو الذي جعلها تكتسي أهمية بالغة في اعتقادنا، لأنها تبرهن بالدليل الواضح على حاجتنا إلى استشارة الماضي في فهم قضايانا المعاصرة، خصوصا وأن ما يجري الآن في العالم أعاد إلى الأذهان، وبشكل غير مسبوق، موضوع علاقة الدين بالسياسة في المجتمعات الإسلامية، وأهل المؤرخ الوسيط أكثر من أي وقت مضى لمعانقة القضايا الآنية من أجل التعريف بمرجعية الإسلام السياسي ومقارنة الدعوات السياسية العصرية مع مثيلاتها التي مرت في الزمن الماضي، بغية الكشف عن المشارب التي تمتح منها ورصد ما يجمع وما يفرق بينها.

وإذا كان انتحال النبوة يفسر بردة مدعيها وتمويههم على العامة من أجل تحقيق طموحهم السياسي فلا تنتشر دعوتهم في غالب الأحيان سوى في أوساط ضيقة لا تتعدى عصبياتهم وتنتهي بالفشل، فإن دعوة منتحلي المهديوية غالبا ما تلقى أذانا صاغية، وينجح أصحابها في استمالة الأتباع بل وفي تحقيق طموحهم السياسي لأن خبر المهدي المنتظر مثبت في كتب الفتن وأخبار أشراف الساعة في كتب الحديث، ناهيك عن أنه ورد في الصحيحين، فلا يرقى إليه الشك. واشتهر المهدي المنتظر عند المسلمين، كما اشتهر نظيره عند غيرهم أيضا، بأنه الرجل الذي لا بد من ظهوره في آخر الزمان ليملا الأرض عدلا بعدما ملئت جورا. ولأن المهدي يمثل الأمل في الخلاص لكل من ضاقت به الأرض فقد انتحل شخصه الكثيرون في تاريخ الإسلام لتحقيق أهداف سياسية، وسينتحل كل من سما له أمل في الخلافة بالبلاد الإسلامية في كل زمان ومكان.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن للمتصوفة طريقة خاصة ونوع من الاستدلال يعتمدون فيه

على الكشف، الذي هو أصل طرائقهم، في إثبات أخبار المهدي الفاطمي. وأن الأوائل منهم لم يخوضوا في أمر المهدي ولا في شيء من انتحال شخصه، وإنما كان كلامهم في المجاهدة بالأعمال. ثم عانق بعضهم فكر الشيعة، وقالوا بالحلول والوحدة، لما شاركوا الإمامية والرافضة قولهم بالوهية الأئمة وحلول الإله فيهم. ثم قالوا بعد ذلك بالإمام المعصوم، وجاء الإسماعيلية وادعوا الوهية الإمام بنوع من الحلول، وادعى آخرون منهم رجعة من مات من الأئمة بنوع من التناسخ، ولما لم تعد الإمامة في آل البيت في فترة من الفترات قالوا بعود الأمر إلى أهل البيت واستدلوا بأحاديث المهدي وغيرها، حتى صار ادعاء المهودية من أحسن الوسائل الموصلة إلى الزعامة السياسية.

بشر مشايخ الصوفية بأن ظهور المهدي يكون بالمغرب وأنه يعيد فتح جزيرة الأندلس ويفتح روما والقسطنطينية ويصير له ملك الأرض، ويكون من صلاة الظهر إلى وقت صلاة العصر وقت صلاة. ثم يظهر عيسى ويبلغ ملك العجم بعد إسلامهم مع عيسى (ق ي ن) أي 160 سنة بحساب الجمل¹¹.

وقال بعضهم إن مدة حكم المهدي بضع، والبضع من ثلاث إلى تسع وقيل إلى عشر. وقال بعض مشايخ الصوفية إن المهدي يملك خمس سنين أو سبع سنين وقال بعضهم ثمان سنين وبعضهم تسع سنين وبعضهم أربعين وبعضهم سبعين. قال ابن أبي واصل شارح كتاب "خلع النعلين": الأربعون مدته ومدة الأربعة الخلفاء من أهل بيته، ثم يتحول الحكم إلى الملك ويستمر مائة وتسعة وخمسون عاما. ونقل ابن العربي عن ابن أبي واصل قوله إن المهدي يظهر بالمغرب عام (خ ف ج) وهي بحساب الجمل 683هـ/1284م وانتظروا نزول عيسى سنة 698هـ/1299م ولما انصرم القرن السابع ولم يظهر قالوا المراد بهذا التاريخ مولده وليس ظهوره وأن خروجه يكون في (د ي) أي سنة 710هـ/1310م وأن عمره يكون عند خروجه ستة وعشرين سنة وأن خروج الدجال يكون سنة 743هـ/1342م وهذا التاريخ ليس إلا ما يقابل الحروف العربية غير العجمية المفتتح بها سور القرآن الكريم (د م ج) وهو ثلاث

¹¹ - يعرف حساب الجمل أيضا باسم حساب النيم والحمارة.

أربعاء اليوم المحمدي، وابتداء اليوم المحمدي عندهم من يوم وفاة الرسول إلى تمام ألف سنة، وثلاثة أرباعه هو التاريخ المذكور أعلاه. ومن الذين بشروا بظهور المهدي في المائة الثامنة أبو يعقوب البادسي كبير أولياء المغرب في بداية القرن 8 هـ/14م سمع ابن خلدون ذلك من حفيده أبي يحيى زكرياء بن عبد الله بن الشيخ البادسي¹².

عين صوفية المغرب زمن ظهور المهدي ومكانه بأدلة واهية اعتمدوا فيها على أحكام النجوم والقرانات والحدثان، حتى إذا انقضى الزمن ولم يظهر جددوا تاريخ ومكان ظهوره. ومع كل محاولة جديدة تزداد دعوتهم استحكما في نفوس أتباعهم، لأن الأتباع لا يشكون في صحة ما يقوله أنمتهم لطاعتهم لهم طاعة عمياء.

5 - البلاذر والبَادِرْهَرُ

يتضمن هذا الكتاب موضوعين لا يخلوان من طرافة لهما علاقة بقوى الأغذية والأدوية بتعبير قدامى الأطباء وصلة بحسن الظن وحسن الاعتقاد في طلب الأسباب، ويتعلق الأمر بالبلاذر كمَقْوٍ للحافظة والبَادِرْهَرُ كترىاق للسموم.

فقد شاع استعمال البلاذر عند المتعلمين على نطاق واسع من أجل تقوية الحافظة. وهو نبات ثمره شبيه بقلوب الطير وبنوى التمر، ولبه مثل لب الجوز، وقشره متخلخل متثقب. كان يجلب من الهند والصين ومن صقلية، في لبه رطوبة عسلية حريرة الطعم تلذع اللسان، يعرف باسم جالوب وبحبة الفهم، اشتهر عند طلبة العصر الوسيط بتقوية ملكة الحفظ، وتقرر ذلك عند علماء العصر، وشدد بعضهم الكراهة في استعماله لما له من عواقب وخيمة على سلامة العقل، ومنهم من لم يبين القول بتشديد الكراهة في تناوله على ما له من انعكاسات سلبية على ذاكرة مستعمله، لأنه يسبب الحمق، بل بناها على أن في شربه لتقوية الحافظة إخلال بالمنافسة الشريفة في مجال التعلم، في وقت كان فيه التعليم يقوم على الحفظ ونقل الرواية باللفظ لا بالمعنى. ومن ثم، فإن التفوق على رفاق الصف الدراسي في الإلمام بالمعارف والرقي إلى مصاف العلماء المبرزين بالاعتماد على تناول البلاذر هو غش لا

¹²- عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الفكر، ضبط ومراجعة خليل شحادة وسهيل زكار، بيروت، ط 2، 1988، ص. 403 و 404.

غبار عليه وسلوك غير مقبول من طرف من تفترض فيهم النزاهة وحسن السيرة، وهكذا كان استعمال هذا العقار من قبل المتعلمين في العصر الوسيط بمثابة تناول المنشط الوقي Dopage عند الرياضيين في وقتنا الحالي.

تتبع المؤلف أخبار كل الذين اتهموا باستعمال البلاذر في تقوية الحافظة، وكان ذلك سببا في جرح عدالتهم وإخراجهم من صف الثقة وانتسابهم إلى من فيهم شيء من خوارم المروءة. ولعل من المفيد هنا التذكير بأن استعمال هذا العقار شاع في المشرق على نطاق واسع مقارنة مع المغرب، وأن الحديث عنه هناك اقترن بالحديث عن إصابة مستعمليه بالحمق في أغلب الحالات بخلاف المغرب الذي لم تصل الحال بمستعمليه إلى الحد الذي وصلت إليه عند مستعمليه بالمشرق.

شبهت حريفة البلاذر ولذعه في اللسان في بعض كتب الطب والعطارة والصيدلة بلذع زبيب الجبل، وليس صدفة أن تقارن حريفة البلاذر بمثلتها الناتجة عن استهلاك هذا النوع من أنواع الزبيب، لأن الزبيب عند الأطباء القدامى يذهب بالبلادة والنسيان، ولأجل ذلك كان طلبة العلم يقبلون على تناوله حبا، أو يدقونه وينقعون مسحوقه في الماء فيشربون ذلك النقيع. وهذا النقيع هو المعروف في المعاجم اللغوية باسم الجُلاب وفي مصادرنا القديمة باسم الدبس أو عسل الزبيب الذي أشار الإدريسي إلى أن الصنهاجيين يفضلونه عن العسل رغم وفرة العسل ببلادهم¹³. وأشار البادسي إلى بيعه بأسواق قبيلة بقوية الريفية¹⁴.

عرفت تجارة الزبيب رواجاً منقطع النظير في العصر الوسيط ليس لنجاعته كزاد للمسافرين فحسب بل لاستعماله في شحذ الذاكرة وتقوية الحافظة. وقد اشتهرت بعض أنواع الزبيب بالجودة دون غيرها كالزبيب الشمسي وزبيب الأغشية، اللذان أشار الطغفري صاحب مختص المرابطين بغرناطة في كتابه "زهر البستان ونزهة الأذهان" إلى إنتاجهما بالأندلس، والزبيب الطلي الذي أشار صاحب الاستبصار إلى وفرته بسجلماسة، والزبيب الذي أشار أبو الخير الإشبيلي إلى إنتاجه بمنطقتي سجلماسة ودرعة والذي عرف باسم

¹³ - الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص 36.

¹⁴ - البادسي، المقصد الشريف، ص 122 و 123.

قشمش وكشمش، وهو زبيب صغير في قدر الحمص وأصغر لا نوى له، حلو الطعم، ما جف منه في الظل كان لونه أخضر، وما جف بالشمس كان لونه أصفر أو أحمر. ولا يستبعد أن تكون تسمية قشمش وكشمش مجرد تحريف للأشمس، وهي الاسم الفارسي للزبيب الذي لا نوى له¹⁵ خاصة وأن الأوصاف التي ذكرناها أعلاه تنطبق على الزبيب الذي اشتهرت مناطق الأهواز وخراسان من بلاد فارس بإنتاجه في العصر الوسيط.

أما البَادِزَهْرُ فكلمة فارسية مركبة من باد ومعناه روح أو ضد وزَهْرُ ومعناه سَمٌّ. وهو نوع من الحجر نسبت إليه قوى غريبة في مقاومة السموم، واشتهر بندرته وارتفاع ثمنه في العصر الوسيط. ويؤكد تزايد الطلب عليه كثرة الإصابات بلدغ ولسع الهوام، وارتفاع معدل الجريمة السياسية وغيرها بواسطة التسميم عن طريق أنواع الطبخ والألبسة.

عرفت تجارة هذا النوع من الأحجار رواجاً كبيراً في العصر الوسيط إلى جانب أحجار أخرى استعملت في علاج بعض الأمراض والوقاية من الأرواح الشريرة، واعتقد الناس في نجاعتها وتغالوا في أثمانها كحجارة تاسي النسبت التي أشار البكري إلى وجودها على الطريق بين غدامس وتادمكة، وهي حجارة تشبه العقيق، فيها الأحمر والأصفر والأبيض¹⁶. وحجر البهت الذي كان يجمع في ساحل البحر بالجزر الخالدات، ويبيع بكل بلاد المغرب عامة وبلاد لمتونة على وجه الخصوص بأعلى الأثمان، واعتقد أهل المغرب الأقصى في ذلك الزمان أن من أمسك به وسار في حاجة قضيت له بأوفى عناية. وكان للمتونيون يتصرفون به في أنواع من العلاج الطبية الفاعل بالخصية، ومنه أحجار كانت تعلق على الثدي الوجعة فتبرأ من وجعها، ومنه أحجار تعلق للولادة فتسهل الولادة، وأحجار يمسكها الماسك بيده ويشير على ما شاء من النساء والأطفال فيتبعه¹⁷ وحجارة السحر التي كانت تجلب من بلاد السودان¹⁸ وهي على صفة أعضاء بني آدم كاليد والرجل والقلب وفيها أحجار تامة الخلقة "من حصل على حجرة كاملة منها سحر بها الملوك والأمراء وجميع

¹⁵- محمد بن مالك الطغري، زهر البستان ونزهة الأذهان، مخطوط م.و. رقم د 1260، ص 66.

¹⁶- البكري، المسالك والممالك 882/2 و مجهول، الاستبصار، ص 225 و الحميري، الروض المعطار، ص 600.

¹⁷- الإدريسي، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية، ص 16.

¹⁸- الزهري، الجغرافية، ص 129.

هذه بعض القضايا التي أثّرنا أن نقف عندها في هذه العجالة عند تقديمنا لهذا الكتاب، وإلا ففيه قضايا أخرى لا تقل عنها أهمية، صاغتها مؤلفته بطريقة تنم عن إلمام مميز بشروط صنعها. ولا مرأى في أن الكثير من المواضيع التي ألمحنا إليها أعلاه لم تحظ حتى الآن بما تستحقه من العناية على الرغم مما لها من الأهمية القصوى في دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والفكري وتاريخ الذهنيات، وعلى الرغم أيضا من توفر مادتها في بعض المصادر التي لم يعتد المؤرخ حتى الآن الاعتماد عليها في أبحاثه.

حسن حافضي علوي

كلية الآداب، الرباط